الإمام عبد الرحمن المهدي: دراسة حول المهديّة الجديدة ودور الإمام عبد الرحمن المهدي في الحركة الوطنيّة السودانيّة ١٨٩٨-١٩٣٤م*

إبراهيم محمد زين**

مقدمة:

لو طلب منّا أن نعطي حكماً لقلنا أنّ هذا السفر قيّم وكفى! لكن ذلك لا يكفي لكتابة مراجعة لهذا النص غرضها حمل القارئ على دراسته وفهمه، ومن ثَمّ اتخاذ موقف ناقد له. والحال كذلك فإن صاحب هذا النص مؤرخ بلغت آلة السرد التاريخي عنده شأواً عظيماً. وهذا الأمر يجعل القراءة النقدية الفاحصة صعبة المنال وتحتاج إلى خبرات علميّة ووعي بآليات تحويل المصادر التاريخية إلى نسق حيّ وفاعل في حاضرنا المعاصر. ولعلّ صاحب النص بسبب دربته بوصفه مؤرخاً يحترم علم التاريخ بالفعل، ومثقفاً شارك في تشكيل أخيلة الكثيرين من السودانيين وغيرهم في النظر إلى التاريخ المعاصر قد فهم خطورة وأهمية هذا النص قيد المراجعة في إثراء الحوار الفكري والسياسي الدائر في السودان في هذه الحقبة المهمة من تاريخه المعاصر.

---

* الأستاذ الدكتور حسن أحمد إبراهيم، **الإمام عبد الرحمن المهدي: دراسة حول المهدية الجديدة ودور الإمام عبد الرحمن المهدي في الحركة الوطنية السودانية ١٨٩٨-١٩٣٤م** (أم درمان: جامعة الأحفاد للبنات، ١٩٩٨).

** دكتوراه مقارنة أديان، من جامعة تامبل، ١٩٨٩م، أستاذ مشارك في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ورئيس قسم الفقه وأصوله بالجامعة نفسها.

لعلّ الكتابة عن الإمام عبد الرحمن المهدي تستدعي زخماً من المواقف السياسية والفكرية والعقدية التي أسهمت بنصيب وافر في تشكيل هوية إنسان ما بعد ظاهرة الاستعمار. فالإمام عبد الرحمن المهدي فريد عصره يقف شاهداً على التحولات الرهيبة التي أحدثتها ظاهرة الاستعمار في نفس المسلم المقاوم ويقف في ذات الوقت ناقداً ومشاركاً ومخلّصاً من تبعات ظاهرة الاستعمار. فازدواجية المشارك والمخلّص هي التي أعطت شخصيته تلك الحيوية الفائقة وذلك التعقيد الخلاّق الذي يستعصي على المؤرخ في سبر أغواره. وعليه فإن مجرّد فهمه، وليس إنصافه يحتاج إلى خبرة علميّة وممارسة تراثيّة حيّة لظاهرة الاستعمار. ولا يمتري أحد في أن مؤلف هذا السفر من المؤرخين الكبار. وما نحن بصدده ليس ـ فقط ـ رد اعتبار شخصية فذة مثل الإمام عبد الرحمن المهدي ولكن محاولة فهم أنفسنا وتاريخنا المعاصر من خلال مواقف ومفاهيم كان لها النصيب الوافر في تشكيل وعينا لأعقد مراحل الحضارة الإسلامية العربية. والإمام عبد الرحمن المهدي يُعد من الشخصيات النادرة التي فهمت ظاهرة الاستعمار، ومن ثم طوّرت آليات وطرائق فعّالة في التعامل مع هذه الظاهرة الجديدة ولا شك أن هذه المواقف التي اتخذها تعدّ نهجاً في البناء الحضاري والوطني ونموذجاً يستحق الدرس والفهم.

الحجة الأساسية التي احتواها هذا الكتاب مفادها أن الإمام عبد الرحمن المهدي عكس الغالب الأكثري من قادة المهديّة سرعان ما فهم مغزى الوضع الجديد بعد هزيمة كرري وسعى لاتخاذ التدابير العمليّة والعلميّة لتجاوزه. في الوقت الذي وقف الكثيرون من قادة المهديّة مواقف تدل على سوء فهم وتقدير لظاهرة الاستعمار.

أحسن الإمام عبد الرحمن المهدي دور المشارك والمخلّص من ظاهرة الاستعمار بإعادة بناء الحركة المهديّة وفق رؤية تدل على عمق فهم لظاهرة الإصلاح والتجديد ووفقاً للمعطيات الواقعيّة. ولعلّ الانتفاضات المهدويّة بين ١٩٠٠-١٩٢٧م قد أثبتت عدم جدوى المقاومة العسكريّة التي تعتمد على سوء تقدير لقوة الخصم وعدم إدراك أبعاد السياسة الدوليّة، ولعلّ طريقة الإمام عبد الرحمن المهدي كانت قائمة على إقناع الخصم بأهمية اختياراته ومحاولة تسويغها لديه، وإرباكه على مستوى المناورة

السياسية التي تنبني على خط واضح في أذهان الموالين ومبهم في أذهان الخصوم إلى درجة انقسامهم حول تقويمه. كل ذلك يدل على عظم إدراك الإمام عبد الرحمن المهدي لأصول لعبة الاستعمار ومحاولة تجاوزها ليس بسبب انغماسه فيها ولكن بسبب وعيه بأبعادها وعياً جرّدها من سلاحها في استلاب هوية الخصم، بل عمل على استخدام قوتها في بناء تلك الهوية. ولا يمتري أحد في أن أطروحة بهذه الكيفية تثير حفيظة الكثيرين الذين يغريهم النظر السهل في إصدار الأحكام المسبقة دون التعمق في حيثيات القضية قيد النظر. ولعلّ النتيجة المنطقيّة للناظر في حجة الكتاب الأساسية هي: أنه ليس كل تعاون مع الاستعمار هو "خيانة" وإنما يجب النظر بتعمق في معاني "التعاون" و"الخيانة" حتى نستطيع أن نصدر حكماً صائباً على ما قام به الإمام عبد الرحمن المهدي وكيف أنجز ما قام به؟ أو ما الدوافع التي حدت به إلى اتخاذ ذلك الطريق؟ وأخيراً ما ثمرة ما قام به؟

لاشك أن المؤلف ـ بالصورة التي ركّب بها الحجة الأساسية لكتابه ـ يجعلنا ندقق النظر في مصادره وفي طرائق استنطاقه لتلك المصادر وفي الكيفيات والآليات التي توسل بها لرسم صورة مكتملة المعالم لشخصيّة الإمام عبد الرحمن المهدي من خلال الكم الهائل من الوثائق التي بنى عليها تحليله، وكذلك من الروايات الشفاهية التي لم يتوسع فيها كثيراً لإعطاء صورة متوازنة وأخيراً من خلال إحكامه لصنعة السرد التاريخي وتوجيهها بصورة علمية رصينة إلى بناء تلك الصورة الذهنية عن الإمام عبد الرحمن المهدي التي هي أقرب إلى الدقة وأكثر إقناعاً وإثراءً لفهمنا للدور الذي قام به الإمام عبد الرحمن المهدي والذي حدا بالمؤلف أن يعده أبرز شخصية سودانيّة في القرن العشرين. كل ذلك وليس المقام مقام رد اعتبار للإمام عبد الرحمن المهدي فذلك همٌ قليل الفائدة ولا ثمرة من ورائه، ولكن الفائدة المرجوة من هذا الدرس هي محاولة فهم التاريخ المعاصر للسودان بوصفه نموذجاً للتعامل مع الحضارة الغربية وظاهرة الاستعمار التي أفرزتها، ولعلّ اتخاذ الإمام عبد الرحمن المهدي لذلك الأمر هو اختيار موفق للإسهام في إعادة بناء الهوية الإسلامية في مرحلة ما بعد الاستعمار. ولهذا السبب فإن محاولة فهم تاريخ السودان المعاصر من خلال رؤية الإمام عبد

الرحمن المهدي ترفدنا بمادة علمية عظيمة الفائدة في بناء الهوية الإسلامية وفهم أنفسنا إزاء الحضارة الغربية الغالبة.

غني عن البيان القول بأن لمؤلف هذا الكتاب موقع مميز فهو قد نظر في الكم الهائل من الوثائق البريطانية، واختار بموضوعيّة وعلميّة جملة منها تمثل الخلاصة المفيدة واستطاع أن ينفذ من خلال تقارير المخابرات ورجال الإدارة البريطانية في السودان إلى رسم صورة ذهنية من تلك التقارير عن الإمام عبد الرحمن المهدي. ولا شك أن تلك الصورة وحدها لا تفي بالغرض فلا بدّ من موازنتها بسرد تاريخي موازٍ لها ومكمل في بعض الأحيان من بعض الروايات الشفاهية ومن مآلات موقف مؤلف النص بوصفه ناقداً حصيفاً لتلك التقارير، ومسدداً لفهمنا للفراغات التي تحتاج إلى خبرة وقدرة على استنطاق الوثائق بإثارة أسئلة ذكية تولّد كماً من المعارف المسكوت عنها والتي تضيء كثيراً من الغموض وترفع عنا الالتباس وسوء الفهم. وبسبب هذه الملكة التي أجاد المؤلف استخدامها تحولت تلك الوثائق إلى لوحة مكمّلة الجوانب عن شخصية الإمام عبد الرحمن المهدي على الرغم من وقوف المؤلف في هذا الكتاب عند عام ١٩٣٤م.

بعد هذه الملاحظات العامة حول الكتاب والمؤلف لننتقل الآن إلى استعراض قضايا الكتاب الرئيسة.

القضايا الأساسية في الكتاب:

يحتوي هذا الكتاب على تمهيد ومقدمة وخمسة فصول وخاتمة وملحق ويبدو لأول وهلة أنه جملة من اللوحات كتبت منفصلة وجمعت على صعيد واحد لتمثل أطروحة حول شخصية الإمام عبد الرحمن المهدي، لكن القارئ المحقق يرى بوضوح الخط الذي يجمع هذه اللوحات الخمس فكل فصل قد عقد لبيان واحدة من قضايا هذا السفر القيم لكن في الوقت ذاته كل لوحة هي مقدمة منطقيّة للوحة السابقة ونتيجة ضروريّة للوحة اللاحقة.

عمل المؤلف على وضع الكليات ـ التي سيتحرك من خلالها لتجميع المفردات

الجزئية عن شخصية الإمام عبد الرحمن المهدي ـ في التمهيد والمقدمة وقد بيّن صراحة الخلفية التي جعلته ينقّب في تاريخ الإمام عبد الرحمن المهدي وكيف أن البيئة التي نشأ فيها كانت مشبعة بالتعصب ضد الإمام عبد الرحمن المهدي لتصل إلى حد وصمه بالخيانة "ووصلت المبالغة أحياناً بوصفه خائناً وتابعاً ذليلاً لبريطانيا" (ص٥) ولكن حينما أتيح للمؤلف النظر في الوثائق والمخطوطات البريطانية في الخرطوم ولندن ودرم وغيرها استقر الرأي عنده على خطأ تلك الصورة المشوهة التي تعتمد على الأوهام العامية ولا تعمد إزاء ما تزخر به الوثائق من حقائق تبين الدور القيادي الذي لعبه الإمام عبد الرحمن المهدي في تحقيق استقلال السودان بأسلوبه الخاص في المناورة والدهاء السياسي البالغ الإحكام. كل ذلك جعل المؤلف يجد المبررات في وصف الإمام عبد الرحمن المهدي بأنه "مهندس استقلال السودان وأهم شخصية سودانية في القرن العشرين" (ص٥) ونظراً لحكمته التي تجلت في إعادة بناء الحركة المهديّة بعد هزيمة كرري بناءً يتسم بالفهم العميق لضرورات المرحلة الجديدة، عُصِمت البلاد من الدخول في دوامة صراع دموي، لم يكن يؤدي إلى شيء سوى تدمير مقدرات البلاد وإحداث فوضى عارمة. لكن الإمام عبد الرحمن المهدي بصبر وأناة حوّل روح اليأس والانتحار الجماعي إلى عمل خلاّق في بناء وإصلاح حركة المهديّة الجديدة بكل روافدها والتي أدت دوراً رائداً في تحقيق استقلال السودان وتحقيق "الحلم" الذي رآه الإمام عبد الرحمن حينما كان حدثاً، وجيوش كتشنر على مشارف إسقاط دولة المهديّة وهو أن يرفع جابر الراية " يا جابر ارفع الراية" ذلك حلم في لحظة يأس جماعي تاريخي سعى الإمام لتحقيقه بعد سني الاستعمار وكان هو أقدر الناس على رفع تلك الراية بعد فهمه العميق لظاهرة الاستعمار ولمقتضيات المرحلة الجديدة.

وتدور المقدمة حول محاولة وضع ظاهرة المهدية عموماً في إطارها الديني على وجه الإجمال وموقف النصوص الدينية في القرآن والسنة منها، ثم محاولة فهمها بحسبانها ظاهرة من ظواهر الإصلاح كما لخصها عبد الحميد أبو سليمان في كتابه أزمة العقل المسلم ثم ينتقل المؤلف للإشارة إلى نص للسيد الصادق المهدي والقائد الحالي لأنصار المهدية الجديدة في محاولة فهم وتقويم مهديّة الإمام محمد أحمد المهدي وقضيتها إزاء

دعوات المهديّة السنيّة، والشّيعيّة، والصوفيّة، والفلسفيّة وقد خلص الصادق المهدي بأن مدرسة الإمام محمد أحمد المهدي قد انفردت بجملة من الخصائص مقارنة بدعاوى المهدية الأخرى هي في مجملها تؤكد الجانب الإصلاحي وملء الفراغ القيادي والقيام بمنصب الإنابة النبويّة في إحياء تعاليم الكتاب والسنة ولعلّ هذا البعد الإصلاحي القويم هو الذي حفظ لهذه الحركة منطق الاستمراريّة في التاريخ اللاحق.

إذاً فالمؤلف يطلعنا صراحة على الكليات التي سينطلق منها في كتابة اللوحات اللاحقة والتي ستمثل تفاصيل فهمه للدور القيادي والرائد الذي اضطلع به الإمام عبد الرحمن المهدي في إعادة بناء حركة المهديّة الجديدة على أساس إصلاحي، ثم يبين لنا المؤلف المصادر التي سيبني عليها حجته الأساسية، وكيف أنه سيحوّل هذه المصادر المختلفة إلى صورة ذهنية متكاملة تقع في إطار بيان الدور الإصلاحي الذي قام به الإمام عبد الرحمن المهدي.

ولا يخفى على الناظر المحقق أن حركة الإمام محمد أحمد المهدي كانت في صميمها دعوة إصلاحية و لم تلبس لبوس الحركات المهدوية التي تنتحل دعاوى العصمة أو غيرها من دعاوى الغيبيية الشاطحة. وبسبب الرحيل المبكر للإمام المهدي وإخفاق الخليفة عبد الله في إدارة دولة المهدية بعد وفاة مؤسسها أسقطت دولة المهديّة وخلفت ذكريات أورثت النفوس اليأس والنفور، لعلّ التصور السابق لما حدث بعد وفاة الإمام المهدي يشير بأن ثمة انحرافاً قد حدث في مرحلة بناء الدولة المهديّة يقع عاتقه على الخليفة عبد الله والذي كانت ثمرته أن أسقطت دولة المهدية وخلّف ذلك الأمر يأساً عميقاً لكن الإمام عبد الرحمن المهدي بحنكته ووعيه بمعالم الإصلاح المرجو في هذه المرحلة ـ مرحلة ما بعد إسقاط دولة المهديّة ـ جعله ينجح في إعادة بناء حركة المهدية محتفظاً بالجوهر الإصلاحي الذي نادى به الإمام المهدي لكن الذي أنجزه الإمام عبد الرحمن المهدي يصح أن يطلق عليه اسم "المهديّة الجديدة".

ويرى المؤلف أن حركة المهديّة بعد سقوط دولتها في ١٨٩٨م "صمدت أمام أحن الزمان وخرجت منتصرة إثر تلك المحنة الدامية الحرجة. وتقوم المهديّة اليوم، أو بالأحرى المهديّة الجديدة بوصفها تجربة حية وحركة سياسية إسلامية ذات نفوذ متسع

وهيمنة بالغة الأثر على المجتمع السوداني" (ص١١) ويرد المؤلف كل ذلك إلى حنكة الإمام عبد الرحمن المهدي في إعادة بناء الحركة لتقوم بذلك الدور الجليل في تاريخ السودان المعاصر. تلك إذاً الكليات التي انطلق منها المؤلف وصرح بها وبنى عليها في اللوحات اللاحقة.

لا شك أن الفصل الأول والفصل الثاني قصد منهما بيان الظروف التي أدت إلى خروج الإمام عبد الرحمن المهدي بوصفه قيادةً جديدة لحركة المهديّة الجديدة بينما ركّز الفصل الأول على تتبع المصير الذي آل إليه أمراء المهديّة بعد سقوط دولتهم وكيف أنهم قد ظلوا في الحبس إلى عام ١٩١٢م دون محاكمة موزعين بين دمياط ورشيد وسجن حلفا وكانت الحجة الأساسية لحبسهم هي الحفاظ عليهم بسبب أنهم قد ارتكبوا جرائم خطيرة ضد السودانيين إبّان سيطرتهم على البلاد، وغلفت ذلك بإمكانية إزهاق أرواح هؤلاء الأمراء السجناء وتعرضهم للخطر إذا ما أطلق سراحهم" (ص١٦) ولعلّ كلا من السير ونجت مدير المخابرات وحاكم السودان العام وكذلك سلاطين باشا قد عملا على الفصل بين هؤلاء الأمراء وبين مؤيديهم، وكان القصد من ذلك هو حرمان حركة المهديّة من قياداتها المتمثلة في أولئك الأمراء وقد سعت الإدارة البريطانية في السودان بكل السبل لمحاصرة وضرب هذه القيادة، وحال الأسر حاولت أن تقسمهم إلى ثلاث مجموعات ووضعتهم تحت رقابة شديدة وسعت في الوقت ذاته إلى بث الشكوك بينهم بالتفرقة في معاملتهم وعملت على تعليم أبنائهم بعض الحرف وإعادة تأهيلهم حتى ينخرطوا في سلك الحياة بوصفهم مواطنين عاديين وبذلك تخبو جذوة الفكرة المهديّة في الجيل الثاني، ولم يسمح لأبناء أمراء المهديّة الذين تولت تدريبهم مصلحة "السكة الحديد" بحلفا وعطبرة مغادرة كل من حلفا وعطبرة إلاّ بإذن مسبق من مصلحة المخابرات.

اقتنعت الحكومة بعدم خطورة الكثيرين من أسرى المهديّة فقامت بإطلاق سراحهم بمناسبة زيارة الملك جورج الخامس ملك بريطانيا إلى السودان ولم يبق في الحبس من أسرى المهديّة سوى عثمان دقنه حتى رحيله في عام ١٩٢٦ إثر داء عضال في البروستاتا وكذلك علي عبد الكريم الذي أسس الحركة التي أطلق عليها اسم

"الألعنيون" وبحلول عام ١٩١٩م كانت مصلحة المخابرات قد تكون لها موقف واضح إزاء أسرى المهديّة، وعليه فقد قسّمت الحكومة أولئك الأسرى إلى ثلاث مجموعات حيث تكونت المجموعة الأولى من سبعة وسبعين أميراً وهؤلاء رفعت عنهم كل صور المراقبة وسمح لهم بالعيش في أيّ مكان في السودان، أما المجموعة الثانية وهي التي تهمنا فقد بلغ عددها تسعة عشر شخصاً من بينهم السيد عبد الرحمن المهدي وبقية أسرة المهدي، أما المجموعة الثالثة فقد ضمت عدداً من المتطرفين مثل علي عبد الكريم وغيره وقد فرضت مصلحة المخابرات رقابة شديدة على المجموعتين الأخيرتين.

وعلى الرغم من هذه الرقابة الشديدة والمكر البالغ الإحكام الذي قامت به الإدارة البريطانية في السودان لاستئصال شأفة الحركة المهديّة بحرمان تلك الحركة من قيادتها وبالعمل على استيعاب أبناء تلك القيادات في مهن وحرف تجعل منهم فيما بعد مواطنين عاديين لا صلة لهم بأفكار الحركة المهدية. نقول: على الرغم من كل ذلك التهميش والتفتيت للكيان المهدوي إلاّ أنّ الإمام عبد الرحمن صار يتحيّن الفرص لاسترداد ذلك الكيان وإعادة بنائه بصورة يصعب على السلطات الاستعمارية منعه، ولعلّ الانتفاضات المهدوية بين ١٩٠٠م ـ١٩٢٧م والتي هي موضوع الفصل الثاني هي التي جعلت الإدارة البريطانية في السودان تخشى أن ينفرط عقد الأمن في البلاد ويؤدي إلى ثورة عارمة كالتي أطاحت بالحكم التركي وأدت إلى قيام الدولة المهديّة.

وقد توالت هذه الانتفاضات ـ والتي لم يخلُ عام منها من انتفاضة ـ تركزت في الجزيرة وغرب السودان وهي المعاقل التقليديّة لحركة المهديّة، وعلى الرغم من عدم نجاح هذه الانتفاضات إلاّ أنّها قد لفتت الأنظار إلى استمرارية الحركة المهديّة وعلى الرغم من سقوط دولتها وأسر قادتها. ويعزو المؤلف فشل هذه الانتفاضات إلى أن غلبة الدافع المهدوي على أهداف تلك الانتفاضات على ما يبدو كان عاملاً مهماً في فشلها في استقطاب مؤيدين كثر".

ويؤكد المؤلف على معنى البعد الريفي وراء الانتفاضات المهدويّة وأنها لم تلق قبولاً وسط سكان المدن والمناطق النيلية "وذلك لأن أغلبية السودانيين ـ خاصة

المستنيرين من سكان المدن والمناطق النيلية ـ لم يبدوا حماساً لها بل، وربما عارضوا المهديّة من أساسها" (ص٦٢) ولكن الحكومة قد واجهت هذه الانتفاضات بقسوة ضارية.

وقد قسم المؤلف الانتفاضات إلى نوعين: انتفاضات مهدويّة وانتفاضات تلبست بمعاني العيسويّة واتخذت لها جملة من الأفكار مفادها أن الحركة المهديّة سيعترضها بصورة مؤقتة المسيح الدجال ويوقف حركتها ويستدعي ذلك الأمر نزول سيدنا عيسى عليه السلام ليزيح المسيح الدجال ويعيد للمهديّة مجدها، ويرى المؤلف أن هذه الأفكار العيسوية قد اختلطت بالتراث الفلكلوري لمسلمي غرب إفريقية وصلته بالمهديّة كما هي في التراث الإسلامي ضعيفة للغاية. وقد فصل المؤلف في ذكر انتفاضة ودحبوبة ١٩٠٨ وأعطاها وضعاً مركزياً في السرد التاريخي ــ ربما بسبب أهمتيها وخطورتها وهي نموذج للنوع الأول. ثم انتفاضة كسلا ١٩١٨، وانتفاضة سنار ١٩١٩، ثم انتفاضة نيالا ١٩٢١، والتي أخطأت السلطات البريطانية في السودان في تقدير حجمها. وقد نجحت تلك الانتفاضات في تأكيد حجم الولاء للمهديّة في غرب السودان ولعلّ النجاح العسكري المحدود الذي حققته قد أخاف السلطات الاستعمارية وجعلها تتحسب لهذا الشأن خاصة وأنه قد تزايدت دعاوى في غرب السودان مفادها أنّ الإمام عبد الرحمن المهدي قد تحققت فيه معاني العيسويّة وقد فقدت السلطات الاستعمارية الثقة في سياسة ولسن مدير المخابرات والذي أقصي من منصبه بسبب سياساته "الرحيمة" تجاه الحركة المهدية وخلفه ديفز الذي اشتهر بعدائه للإمام عبد الرحمن المهدي وقد أدى ذلك إلى تغيّر جذري في سياسة السلطات الاستعمارية تجاه الإمام عبد الرحمن المهدي الذي وصفه ديفر "بالسيد المتآمر". ثم يتعرض المؤلف إلى حادثة زالنجي ١٩٢٧ والتي قام فيها الفكي مهاجر بالإعداد لانتفاضة قائمة على دعوى العيسوية ولكنها أخمدت في مهدها واستشهد مهاجر مع اثنين من أتباعه قبل التمكن من التحرك لاحتلال زالنجي.

يبين المؤلف أن هذه الانتفاضات قد نجحت في جعل السلطات الاستعمارية أكثر حساسية تجاه المسائل الدينية وعدم استفزاز مشاعر المسلمين، بل أنها قد عملت على

عدم السماح للمنظمات التبشيرية بالعمل التبشيري في الشمال حيث الأغلبية العظمى من المسلمين وشجعت الحكومة على بناء المساجد وفتحت الطريق للحج والذي كان قد أغلق طوال عهد المهديّة وقامت بفتح المعهد العلمي لتخريج سودانيين لملء وظائف القضاء والإفتاء الشرعي، وتظاهرت كذلك باحترام هيئة العلماء التي كونتها في مطلع عهدها في عام ١٩٠١. ولعلّ كل هذه التدابير قد ولدتها تلك الانتفاضات المهدوية ولا شك أنها كانت تدابير في غاية الفائدة للحفاظ على الهوية الإسلامية في السودان.

بعد هذا التقديم المفيد يركّز المؤلف في الفصول الثلاثة الآتية على رسم لوحات متتالية لبيان الأدوار التي قام بها الإمام عبد الرحمن المهدي في إعادة بناء حركة المهدية الجديدة. وعلى الرغم من أن الإمام عبد الرحمن المهدي قد ولد قبل اثنين وعشرين يوماً من وفاة والده وقد تفتحت عيناه على مجزرة الشكابة التي استشهد فيها المهدويون من أسرة الإمام المهدي من بينهم الخليفة شريف وأبناء المهدي الفاضل وبشرى وأصيب عبد الرحمن بإصابة بالغة في صدره، وعلى الرغم من كل ذلك وفضلاً عن بؤس العيش الذي عانى منه في صباه ــ فقد أظهر الإمام عبد الرحمن اهتماماً بالغاً بإعادة تنظيم أنصار المهديّة منذ صباه، قد ربط المؤلف كل ذلك بالحلم الذي رآه الإمام المهدي ـ في حين أن جحافل جيوش كتشنر تتقدم لتغزو البلاد ــ ملخصاً نشاط الإمام عبد الرحمن المهدي في محورين أساسيين:

أولهما: أنه عمل منذ البداية على تأكيد قيادته لأسرة والده وصار الممثل الوحيد لهم ساعياً على مصالحهم باذلاً أقصى جهده لرعايتهم وساهراً على شؤونهم، وقد نجح الإمام عبد الرحمن في ذلك غاية النجاح كما أثبت المؤلف بكثير من الأمثلة في هذا الصدد.

وثانيهما: أن الإمام عبد الرحمن قد سعى بحرص وحذر شديدين "إلى مجابهة سياسة سلاطين باشا المعادية حتى يتفادى أي قهر من الحكومة له ولأسرته وللأغلبية المهديّة الصامتة" (ص٧٠)

وقد طفق المؤلف لبيان هذا النجاح في التعامل مع السلطات الاستعمارية وتحين

الفرص للوصول إلى هدفه وقد بيّن المؤلف نجاح الإمام عبد الرحمن في مناورة البريطانيين بين عام ١٩١٤ـ١٩٢٣ وكيف أن ولسن مدير المخابرات قد حاول جاهداً إقناع الإدارة الاستعمارية بأهمية التعامل مع الحركة المهديّة بحسبانها فرعاً من الطريقة السمانيّة، خاصة وأنها في شكلها الجديد تحت قيادة الإمام عبد الرحمن المهدي إنما هي "مهدية جديدة" ولكن كانت هناك مجموعة أخرى من الإداريين البريطانيين ممثلة في كل من ونجت الحاكم العام وسكرتيره الخاص مستيوارت سايمس والذي أصبح الحاكم العام بعد ١٩٣٤ـ١٩٤٠ والتي ترى خطورة التعامل مع الإمام عبد الرحمن المهدي واعتبار حركته بأنها فرع من الطريقة السمانيّة وقد رأى سايمس أن أنصار المهديّة في (١٩١٦م) لا بدّ وأن يكونوا وطنيي المستقبل وبالتالي من أشد المعارضين للوجود البريطاني في السودان. وقد استفاد الإمام عبد الرحمن المهدي من هذا الانقسام في وجهات النظر في الإدارة البريطانية حياله وتعامل مع ذلك الأمر بحصافة بالغة وحوّل ذلك التباين في وجهات النظر لصالحه وأعاد بناء نظام المناديب ونجح في انتزاع اعتراف الحكومة بالسماح بقراءة راتب المهدي وطباعته ثم إعادة بناء مسجد المهديّة بأم درمان وأخيراً بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى والدور الفعّال الذي قام به في كسب الولاء للبريطانيين بين أتباعه ضد الدولة العثمانية كُوفي بأن يكون ضمن الوفد الذي ذهب للتهنئة بانتصار بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، وكيف أنه قد سرق الأضواء في حفل الاستقبال الذي عقد للوفد بقصر بكنجهام وما عرف باسم "حادثة السيف" ولعلّ مناورات الإمام في سماح الإدارة البريطانية بما عرف باسم "الحج" إلى جزيرة آبا وكذلك الدور الخفي الذي قام به في تشجيع طباعة كتاب عن المهدي والمهديّة والذي ألفه عبد الرحمن حسن الجابري وهو أحد الرعايا اليمنيين المؤمنين بالمهديّة. ولعلّ مواقف الإمام عبد الرحمن المهدي هذه كلها، تدل على براعته في المناورة وفطنته في استغلال الظروف لصالح هدفه. ويذهب المؤلف إلى أنه بحلول عام ١٩٢٦ أصبح الإمام عبد الرحمن المهدي "شخصية مرموقة لها صالونها الخاص "بالسكة الحديد"... وإلى جانب ذلك كله أصبح السيد أغنى أغنياء السودان آنذاك" (ص٨٤).

ولعلّ الفصل الرابع بقدر ما هو محاولة لبيان موضع المهدية الجديدة من الإدارة البريطانية قبيل مجيء السير جوفري فرانسيس آرثر حاكماً عاماً للسودان وبعد استقالته بسبب سياسته إزاء الإمام عبد الرحمن المهدي إلاّ أن الفصل الرابع وبإحكام المؤلف لصنعة السرد التاريخي يتبيّن لنا مدى التعقيد الذي اكتنف تلك المرحلة التي تصاعدت فيها الدعاية المصريّة ضد البريطانيين، ومن ثَمَّ حاجة الإدارة البريطانية لخدمات الإمام عبد الرحمن المهدي لمواجهة تلك الدعاية المصريّة والتي تجعل منه ظاهريّاً ربيباً للاستعمار البريطاني ومتعاوناً وخائناً لمصالح بلاده ولكن كان دافع الإمام عبد الرحمن المهدي هو السعي لايجاد سودان مستقل عن النفوذ المصري والبريطاني معاً وبسبب ضرورات المرحلة لا بدّ من التحالف مع بريطانيا ضد شعار وحدة وادي النيل الذي يسلب السودان حقه في أن يكون كياناً مستقلاً.

ثم يسعى المؤلف لبيان المخاوف البريطانية في المنطقة بسبب انتشار دعوى المهديّة في غرب إفريقية عموماً وفي نيجريا على وجه الخصوص وكذلك بسبب تلك المراسالات التي تزعم المخابرات البريطانية أنها قد تمت بين سعيد بن حياتو وغيره وبين الإمام عبد الرحمن المهدي. وما كان كذلك من موقف ولسن مدير المخابرات في السودان من تلك التقارير ومحاولته الدفاع عن الإمام عبد الرحمن المهدي ونفي أيّ صلة بينه وبين تلك المراسلات واتهام مصر بأنها وراء ذلك الأمر بهدف اختلاق مشاكل للوجود البريطاني في كل من السودان ونيجريا، ومن ثَمَّ فقد أوفدت السلطات البريطانية يشيم والذي كان ملماً بالشؤون الإسلامية في المنطقة للكتابة تقرير عن مدى تورط الإمام عبد الرحمن المهدي في الدعاية المهدويّة بغرب إفريقية ونيجيريا على وجه الخصوص وقد أثبت تقرير يشيم ضلوع الإمام عبد الرحمن المهدي في ذلك الأمر.

ويبدو واضحاً أن الإدارة البريطانية في السودان كانت منقسمة على أمرها في شأن التعامل مع الإمام عبد الرحمن المهدي وبمقتل السير لي ستاك في القاهرة في نوفمبر ١٩٢٤ ومجيء السير آرثر ترجحت كفة ولسن إزاء مكامايكل وبقية طاقم الإدارة البريطانية التي كانت ترى في الإمام عبد الرحمن المهدي خطراً محدقاً بالوجود

البريطاني في السودان. ولعلّ شخصية آرثر وطريقته في التعامل مع الإمام عبد الرحمن المهدي هي التي أسهمت في صعود نجم الإمام عبد الرحمن المهدي سياسياً، ومن ثَمَّ تصاعد حدة الصراع في داخل الإدارة البريطانية الذي أفضى في نهاية الأمر إلى استقالة آرثر من منصبه بوصفه حاكماً عاماً للسودان قبل مضي عامين على تعيينه. على الرغم من أن الوثائق قد أعطت زيارة آرثر إلى جزيرة آبا حجماً كبيراً في تصاعد حدة الصراع بين أطراف الإدارة البريطانية إلاّ أن هناك أسباباً أخرى أشار إليها المؤلف عرضاً كانت بمثابة المسكوت عنه. ويبدو واضحاً أن آرثر قد أعطى مبررات كافية لإسقاطه بسبب تلك الزيارة وبسبب زيارة الإمام عبد الرحمن المهدي للنيل الأزرق مباشرة بعد زيارة آرثر له في جزيرة آبا لتدعيم موقفه من مؤيديه.

وأخيراً فإن استقالة آرثر بسبب فشل إقناعه اللورد لويد المندوب السامي البريطاني في مصر وبسبب عزلته التامة في مجلسه وموقف مستشاريه المندد بسياسته تجاه الإمام عبد الرحمن المهدي بعد زيارته لجزيرة آبا. نقول: إن استقالة آرثر قد تركت صدى واسعاً في دوائر السياسة البريطانية تجاه السودان وأدت إلى فتح ذلك الملف، ومن ثَمَّ فتح ملف التعامل مع "المهديّة" في المنطقة تحسباً لأي خطر يمكن أن ينجم في المستقبل وقد تركت تلك الاستقالة صدى قانونياً وسياسياً وسط الدوائر المصريّة كذلك. ولكنها في نهاية الأمر كانت تعني بالنسبة للإمام عبد الرحمن المهدي أن الإدارة البريطانية قد أرغمت آرثر على الاستقالة بسبب تعاطفه مع الإسلام وصلته الشخصية بالإمام بينما هو في الحقيقة معروف بعدائه للإسلام ومشايعته لسياسة التبشير المسيحي بالمنطقة.

ويأتي **الفصل الخامس** ليكمل الصورة التاريخية خلال حقبة مهمة عرفت باسم سياسة القيود الاقتصادية ١٩٢٦-١٩٣٤ والتي انتهجها الحاكم العام الجديد جون مافي والذي اعتقد بسذاجة بالغة أن من الممكن السيطرة على الإمام عبد الرحمن المهدي بربطه اقتصادياً بالإدارة البريطانية وذلك بمنحه قروضاً مالية لتنفيذ مشاريعه الزراعية والتي من المفترض أن تدر عليه أرباحاً لتكون له ثروة تلهيه عن العمل السياسي. وعلى الرغم من استمرار القيود التي فرضت على الإمام عبد الرحمن في عام

١٩٢٣ وسعي الإدارة البريطانية في تنفيذها بصرامة وجدية إلاّ أن طريقة الإمام عبد الرحمن المهدي في الالتفاف حول هذه القيود وإفراغها من محتواها قد أثبتت نجاحاً منقطع النظير ودهاءً أربك الإدارة البريطانية وجعلها تعي بأن الإمام عبد الرحمن قد استفاد من سياسة القيود الاقتصادية "لبناء ثروة عمل على استثمارها بفعالية في مجال السياسة. وعليه فإن مشاريعه الزراعية في أبا وقوندال ومشروع الهدى بالجزيرة ومشاريع أخرى متفرقة بسبب حسن إدارتها وإخلاص القائمين عليها درت أرباحاً وفيرة جعلت من الإمام عبد الرحمن المهدي في عام ١٩٣٥ من كبار ملاك الأراضي ومن أثرى أثرياء السودان، ولكنه استغل تلك الثروة في تركيز قوته السياسية وسط أتباعه التقليديين ووسط شيوخ القبائل ورجالات الإدارة الأهلية وأخيراً وسط المتعلمين من سكان المدن. وقد نجح الإمام المهدي في أن يلتف الجميع حول شعاره "لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب، وطننا السودان وديننا الإسلام" وهو الشعار الذي قاد في نهاية الأمر إلى استقلال السودان.

وتأتي الخاتمة لتبين لنا كيف أن تراكمات "سياسة القيود الاقتصادية" قد أدت إلى نتائج عكسية عمل الحاكم العام فيما بعد ـ سير سيتورات على ضربها بانتهاج سياسة جديدة في التعامل مع الإمام عبد الرحمن المهدي ولكن قد بدا واضحاً أن الإمام عبد الرحمن المهدي كان إمام عصره عارفاً بأساليب خصومه ومدركاً لمكامن قوته ومواضع ضعفهم فعمل على تطوير الأولى واستغلال الثانية بحنكة ودهاء جعلته مستحقاً للقب "أهم شخصية سوادنية في القرن العشرين".

ملاحظات على سبيل الحوار:

أولاً: لا يمتري أحد في أن المؤلف قد نجح في رسم صورة متوازنة لشخصية الإمام عبد الرحمن المهدي ولنشاطه السياسي في إعادة بناء "المهدية الجديدة" حتى عام ١٩٣٤ لكن يبدو واضحاً أن هذه الصورة التاريخية المتخيلة قد اختلطت كثيراً بموقع المؤلف بوصفه مؤرّخاً حصيفاً يسعى لاستنطاق وثائق الإدارة البريطانية وغيرها من الوثائق والآراء الأخرى ليخرج لنا بصورة أكثر واقعية وتعبيراً عن الجو السياسي

والديني الذي أسهم في نشأة وتطور حركة "المهديّة الجديدة" وذلك يقودنا إلى سؤال محوري حول إمكانية تحويل وثائق الخصوم والأصدقاء على السواء إلى لوحة تاريخية متوازنة تتسق فيها صنعة السرد التاريخي مع حرارة العاطفة والانتماء للشخصية التي يكتب عنها.

ثانياً: لقد سعى المؤلف لمحاولة درس ظاهرة "المهديّة الجديدة" بوصفها حركة إصلاحٍ وتجديدٍ، وطفق يجمع أطراف الأدلة لتسويغ ذلك الأمر وعلى الرغم من أنه قد وفق كثيراً في اختيار هذه الزاوية من النظر وبيان معنى الاجتهاد التطبيقي الذي قام به الإمام عبد الرحمن المهدي حتى يحقق مقاصد الدين العليا في تلك الحقبة الحساسة من تاريخ السودان المعاصر إلاّ أن جدوى قراءة تاريخ تلك الحقبة في ضوء هذه المفاهيم قد لا يفيد كثيراً عند البعض خاصةً وأن فرية وصمه "بالخيانة والعمالة" كانت نتيجةً لحمأة الصراع السياسي الذي كان دائراً إبّان صنع الأحداث. وعليه فإن محاولة تسويغ ما حدث بالنظر إلى مآلات الفعل ربما أدى إلى الوقوع في الإسقاط التاريخي أكثر من كونه تعبيراً عن نهج السرد التاريخي المتوازن.

ثالثاً: لا شك أن الإمام عبد الرحمن المهدي شخصية فريدة ونموذج في التعامل مع ظاهرة الاستعمار من موقع العارف والمقدر لمكامن القوة والضعف فيها، ولا شك أنه قد حذق لعبة المناورة السياسية واستخدام غفلة الخصم لبناء قوته السياسية التي صارت أمراً واقعاً دون رضا الخصم، ثم استخدمها بذكاء لتحقيق مقاصده وغاياته، إلاّ أنّ الكتابة التاريخية الناجحة والناجعة تقتضي الانتقال من رسم الصور إلى بناء النماذج، وربما يرى البعض أن ذلك الأمر خارج عن قصد المؤرخ وعمله، ولكن هذا العمل الذي أنشأه الأستاذ **حسن أحمد ابراهيم** إنما قصد منه بيان كيفية الانتقال من مجال رسم الصور الفرديّة إلى بناء النماذج التاريخيّة، ويبدو أن بناء هذه النماذج مفتقر إلى إعمال جملة من المناهج والخبرات العلمية التي تستوعب صنعة السرد التاريخي وتتجاوزها إلى آفاق أرحب وأكثر قدرة على التفسير والفهم. وعليه تكون شخصية الإمام عبد الرحمن المهدي نموذجاً للتعامل مع ظاهرة الاستعمار.

رابعاً: على الرغم من أن الفرق بيّن بين طريقة المؤلف في التعامل مع ظاهرة

"المهديّة الجديدة" مقارنة بكتابات المؤرخين البريطانيين أو المصريين في التعامل مع ظاهرة المهديّة ـ على العموم ـ، فإننا نزعم بأن الصورة التي رسمها تبيّن معالم مدرسة سودانية في الكتابة التاريخية.

خامساً: لا شك أن مجموعة الصور والتي اختيرت بدقة فضلاً عن الملحق الذي كتبه الأستاذ يوسف بدرين قد أضفى على الكتاب حيوية وأخرجه عن كونه صورة تاريخيّة باردة. وأخيراً على الرغم من تأخر صناعة الكتاب بالسودان فهذا السفر قد خرج بصورة طيبة.